صفاد السلالات

تأثره بالتركيب الجثماني والبيئة الاجتماعية
— في نظر العلم الحديث

يثبت تاريخ البشر ان ارتقاء العمران واطراد تقدم الثقافة رهينان بما يتاح للجماعة من فرص للاقتباس والتعلم من جيرانها. فمكتشفات جماعة ما تنتشر فتتصل بغيرها من الجماعات. وبازدياد وجوه الاتصال بينها تزداد هذه الفرص. إن أبسط القبائل ثقافة وأحطهم رتبة في سلم العمران هي القبائل التي عزلت عن غيرها مدى طويلاً من الزمن فعجزت عن الافادة مما في جيرانها من العمرانية والثقافة.

ومع ذلك فالتاريخ يثبت ان الانسان قلما اعترف بما عليه من دين الى الجماعة التي خارج نطاق جماعته. إن افراد كل جماعة يعترفون بالصلة الموثقة بينهم ولكنهم يقفون موقف عداء من الغريب عنهم. ثم يبذلون ما في وسعهم وحتى قدر اقدارهم ما يؤيد مصالح جماعتهم منصرفين عن مصالح جماعة اخرى. كان بناء القبائل البدائية ينظرون الى الغريب عنهم نظرهم الى وحش ضار، ولا يمكن غير الشعور بوجوب القضاء عليه وحتى جماعته. وفي عهد الاغريق الأقدمين كان الولاء لمدينة ما من مدن يونان يعني تماسك ابناء تلك المدينة وعداوتهم لمدن اخرى وفي عهد حضارة المدينة الاقطاعية كان الولاء لأمير الاقطاع أو لدولة المشيء وحدة من سكان الامارة وارقى شعوبها وحدة الدول القومية الحديثة واقلها اليوم بعضها حيال بعض او ضد بعض بانية خصومها على اعتبار ان حقوق امتها منافضة لحقوق امم الأمم الأخرى.

ولعل أحدث قالب يفرغ فيه حقد اعدائه القديم بين جماعة واخرى غريبة عليها هو قالب النظريات العنصرية وأساسها الايمان بأن سلالة جماعة ما متفوقة على سلالة اعدائها.

والنظرية العنصرية التي حسبت في أساس للتماسك الاجتماعي ليست خيراً من أسس التماسك الاخرى كلها والشقاء الذي سببه ويسببه ذلك لأنها تتحد بتسخير غير مباشر مستقر في تركيب الانسان الجثماني. ثم ما هذه الدعوى الى جماعة الناس على أساس الأخوة فتبدو واقعة لارتقاء العمران والتقدم العلم والتربية. فالتنظيم الاجتماعي يتأسس على اساس القبيلة او الولاء لأمير الاقطاع، او الحماسة للشعور القومي، يتقدم لان اساسه عوامل اجتماعية متبدلة ومن هنا نجد فيها مجالاً — وأملاً — للتثقيف والتحول نحو تحقيق مثل التعاون العام.

ولكن اذا سلمنا بأن اساس تماسك الجماعة هو اساس بيولوجي مستقر في التركيب الجثماني

وجب الحكم حالاً بأنهُ لا يتغير وان التقدُّم نحو تماون الجماعات مستحيل

وليس من المتعذر على الباحث ان يفهم كيف نشأ الاعتقاد بأن السلالة اساس لصورة التنظيم الاجتماعي. فالفروق بين ثقافات البيض والزنوج والصينيين تسترعي النظر. ويرى في الوقت نفسه ان الجماعة التي من وراء كل ثقافة من هذه الثقافات تمثل صورة خاصة من البشر تختلف عن صور البشر الاخرى . حتى في جماعة من سلالة واحدة نرى نزوعاً عامة في السلوك يختص بها طوائف من تلك السلالة دون غيرها. فحيوية السمر في جنوب اوربا تختلف عن هدوء الشقر في شمالها ورباطة جأشهم ، وكذلك تواكل سكان شرق أوربا يقابل نزعة الاستقلال في سكان غربها. وفي الولايات المتحدة نجد الصلة بين السلالات متجلية في علاقة البيض بالزنوج وبالمهاجرين من شرق آسيا . فالصفات العنصرية البادية في اللون والملامح تفصل هذه الجماعات بعضها عن بعض . ويزيد الطين بلة ان هناك عوامل اجتماعية واقتصادية تحرّك هذا العداء الناشيء عن فروق عنصرية . فالهوّة الاجتماعية بين البيض والزنوج ، وانخفاض مستوى عيش الأسيوي مما يجعلهُ منافساً قويًّا للابيض ، كل شعور العداء في علاقة هذه الجماعات بعضها ببعض

ان الشعور العنصري يتصل دائمًا بالايمان بأن السلالة التي ينتمي اليها المرء هي السلالة المتفوقة على غيرها . حتى الذين يحركهم التسامح العنصري ويدعون اليه نجد في مواقفهم شيئاً من التعالي عند ما يشيرون الى وجوب المساواة والتعاون بين سلالتهم والسلالات الاخرى والايمان بالعنصرية لا يقوم على أساس علمي بل هو قائم على رأيين خاطئين أحدهما الخلط بين الوراثة في الاسرة والوراثة في الشعب . والثاني مذهب خاطيء يؤيد بأن صورة الثقافة في شعب من الشعوب ترتدُّ الى ينابيع بيولوجية . وليس من يُكر من علماء الاجناس ان هناك صلة بين تركيب المرء البيولوجي ومزاياه العقلية . وما يعرف عن سيكولوجيا الشواذ يثبت ان عمل العقل رهين بصحة الجسم . والبحث في « الشخصية » يشير الى ان هناك فروقاً بين الشخصيات لا تفسر الا تفسيراً بيولوجيًّا . ومن المرجح ان الصفات العقلية التي ترتدُّ في اصلها الى تركيب الجسم البيولوجي قد تكون وراثية . ولعلَّ أبلغ دليل على ذلك في الحيوانات الأدنى التي تؤصل بالانتخاب

فأصناف مختلفة من الكلاب مثلاً أصّلت بالانتخاب تأصيلاً جعل لكل صنف من شخصية خاصة تنبع على كل فرد من افراد ذلك الصنف تقريباً . وقد زعم ان احدى السلالات البشرية متصفة بصفات عامة تشمل افرادها وجب ان يثبت ان افراد تلك السلالة يشبهون افراد صنف من الكلاب في تشابههم الوراثي أي يجب ان تثبت ان التزاوج في تلك السلالة منحصر بين افرادها اي انهُ زواج قرب[1] فقط، حتى تكون المزايا الشريحية التي تسند اليها بعض المزايا العقلية عامة

(١) القربى هي المخصص من صاحب العين الدائرة في النسب وزواج القربى يؤدي معنى inbreeding اي عندما ينحصر التزاوج في دائرة واسعة محدودة

شاملة الجميع ، او انها غالبة على الكثرة الساحقة فتسبغ على تلك السلالة طابعاً عاماً من السلوك

ولذلك يجب ان نعرف مدى زيادة السكان الناشئة عن زواج القربى في القبائل المعزولة ولا سيما القبائل التي تجيز او تؤثر زواج القربى ؛ يكثر هذا الضرب من التوالد . ولكن ليس هناك سجلات يصح الاعتماد عليها في معرفة صلات نسب الاحياء بالقياس الى صلة النسب بين اسلافهم. على ان في بعض القرى الاوربية سجلات تجيز لنا تناول الموضوع على اساسها . ففي سجلات قرية المانية ان نصف عقود الزواج في سنة ١٨٥٠ كان بين افراد منحدرين من اسلاف ذوي قربى . ثم ان مدى هذا النوع من الزواج يقاس بتناقص عدد الاسلاف على كر السنين . فامبراطور المانيا السابق كان لهُ ٥١٢ سلفاً قبل اثني عشر جيلاً . ولو ان جميع اسلافه تزوجوا نساء لا يمتن اليهم بصلة القربى لكان لهُ اربعة آلاف وستة وتسعون سلفاً من اثني عشر جيلاً ، فزواج القربى يفضي الى قلة عدد الاسرة . وهذا النوع من الزواج يقتضي ان تكون الحياة مستقرة . فاذا كثر السفر والرحلة فالغالب ان المسافر المبتعد عن قريته يتزوج فتاة من غيرها

ولما كان من المتعذر الفوز بحقائق وافية يصح الاعتماد عليها في دراسة تحدر شعب يقطن منطقة معينة . فمسألة التجانس الوراثي في ذلك الشعب لا تحل الا بدراسة موضوعية خطوط الوراثة في كل شعب على حدة . فاذا كان في الوسع ان نبين ان كل اسرة تختلف في سماتها الوراثية عن كل اسرة اخرى فمن المتعذر ان نتكهن عن صفات وراثية تعم الامة كلها . وكل ما جمعهُ العلماء من الحقائق يثبت ان جميع الاسر حتى ما كان منها مقتصراً على زواج القربى ، كثير التفرع حتى يتعذر أن نميز بين معظم الشعوب الاوربية تمييزاً وراثياً واضحاً

وتاريخ البشر يحملنا على توقع هذه النتيجة . إننا لا نعرف الا احياناً يسيراً من تاريخ البشر ، ولكن البحث الانثروبولوجي والاركيولوجي يمكننا من رسم صورة على جانب من الوضوح للاحداث في ماضي البعيد . ففي اواخر العصر الحجري طفت على أوربا سلالة جديدة يقال انها أتت من آسيا . وبعد زمن أخذ الناس ينتشرون في انحاء الامبراطورية الرومانية وبعض من نحو اثنتا عشرة آلاف سنة او زيادة آلاف سنة طرقوا الجنوبي . وفي وسعنا ان نتتبع هجرات المتحدرة بعد ذلك العهد تتبعاً وفي تفصيلاً . فقبائل شمال [illegible] هاجرت في الاعصر التالية [illegible] الى بلاد سيبريا الوسطى ، وهاجرت بلاده في غرب آسيا وشرق افريقية . وانتشرت [illegible] داخل القارة الى ساحل المحيط الهادي . وانتشرت قبائل اميركا الجنوبية من اقليم [illegible] في شمال القارة الجنوبية . وفي افريقية انتشرت قبائل البانتو من موطنها — وخرجت منه في اثني عشر الف سنة — في معظم البلاد الافريقية الواقعة الى الجنوب من الصحراء الكبرى

فاذا اجتزنا تلك الحقب المنقطعة في القدم الى حقب التاريخ المدون وجدنا صورة الهجرات البشرية أوضح وأتم . وقد كثرت هذه الهجرات في اوربا وشمال افريقية وغرب آسيا ، فالقبائل

الشعب الكلتي celtic من بلاد الغال الى أسبانيا وايطاليا ثمَّ الى آسيا الغربية . والقبائل التوتونية تركت موطنها الشرقي وغزت بلاد الغال وايطاليا وبعض شمال افريقيا وبعضها زحف في انكلترا . وانتشر العرب في غرب آسيا ، وشمال افريقية وأنشأوا ممالكَ في أسبانيا ، وغزوا جنوب فرنسا . وتوالت موجات من الهجرات البشرية في شرق آسيا الأقصى ، فشاهد غرب آسيا وأوربة غزوات الهون والترك والتتر والمغول . وجاءت الحروب الصليبية فتركت أثرها في اختلاط الشعوب بعضهم ببعض . وجميع الحقائق تدلُّ على وقوع تزاوج في هذه الغزوات جميعها بين الغزاة وأهل البلاد

وساعد الاستعمار على اختلاط الشعوب ، كاستعمار الفينيقيين واليونان في العصور القديمة وخاصة استعمار الرومان ، فاتصلت شعوب مختلفة من أصول متباينة بعضها ببعض . ولا ننسى الرقَّ فقد كان من العوامل التي ساعدت على هذا الاختلاط

وتوزيع اللغات في هذا العصر يدلُّ على اختلاط الشعوب بعضها ببعض في الماضي . فهناك لغات منتشرة انتشاراً واسعاً . كطائفة اللغات المعروفة باسم الهندية الاوربية ، ثم الصينية والعربية ، والبانتوية في افريقيا ، والمالاوية في جنوب آسيا الشرقي . ولا بدَّ ان تكون تعبيرات هذه اللغات قد حلَّت محل تعبيرات أخرى كانت منتشرة قبلها . وتبادل اللغات يقتضي الاختلاط الوثيق وهذا يشير الى أن احتمال التزاوج كان عظيماً . واستقرَّت الشعوب استقراراً بعيد المدى في عهد الفدية (الاقطاع) عندما اصبح الناس مرتبطين بالارض سواء كان رقَّاً أو أحراراً

هذه الحقائق التاريخية تحملنا على الاعتقاد بأنهُ من العبث ان نبحث في أوربة عن سلالة نقية . اننا نجد ولا ريب في بعض القرى الصغيرة حيث الملكية الزراعية ثابتة والتزاوج محصور في أفراد الأسرة لا يتعداها الى الخارج ، جماعات نقية العنصر ولكن هذه الأسر لا تمثل سلالة نقية . وليس هناك ما يحملنا على الاعتقاد بأن انشاء سلالة نقية أمر مستطاع بتزويج الفرد على نحو ما تُولَّد سلالة نقية من الكلاب أو غيرها من الحيوانات الأليفة . والواقع ان المناطق التي نظن انها تضمُّ « أنقى السلالات » لا تشمل إلاَّ عدداً يسيراً من الافراد الذين يمثلون « طراز » تلك السلالة . فالطراز « النوردي » مثلاً يتصف على ما يقال برؤوس طويلة ضيقة ، وقامة ممشوقة ، وعيون زرق وشعر أشقر . وهذا الطراز من السلالة النوردية هو أكثر تميزاً في مقاطعة دالسلاند بأسوج حيث تبلغ نسبته الى سائر السكان في بعض الأنحاء أضعافاً الى الاوصاف المتقدمة أوصافاً أخرى تعتبر من ميزات النوردي مثل شكل الأنف والأذن وجدنا نسبة الافراد الذين يجمعون جميع هذه الصفات — أي الذين يمثلون أنقى صور هذه السلالة — أقلَّ مما تقدَّم . فالقول بأن طرازاً معيناً من الناس يمثل سلالة نقية ، يختلف في صفاتها الاصلية عن سلالة أخرى غير مؤيد بحقائق البحث العلمي الحديث

ومع ذلك يزعم دعاة « التعنصرية » ان الفروق الجثمانية بين أطرزة متباينة من الناس كالبيض

والزنوج وسكان شرق آسيا كبيرة جداً بحيث لا بدَّ أن يتجلى أثرها في سلوك هذه الطوائف من الناس . أي إن هناك صلة وثيقة بين التركيب الجثماني والسلوك وهذا يعني أن طائفة عنصرية معينة لا بدَّ أن تتصرف دائماً في موقف معين تصرفاً يخالف تصرف طائفة عنصرية أخرى في الموقف نفسه

وقد تقدم معنا أن هناك صلة في الفرد بين تركيبه الجثماني وظائفه العقلية . ولكن المسألة التي تهمنا في هذا البحث ليست الصلة بين الجسم والعقل في الفرد ، بل الصلة بين الجسم والعقل في الشعب . ولا سيما اذا كان شعباً منحدراً من أصول وراثية شتى

ويجب أن نقرر هنا أن سلوك الانسان أشد تأثراً بأحوال البيئة منهُ بالتركيب الجثماني . فمهما إن الأدلة قائمة على أن التركيب الجثماني في أسرة ما قلما يتغير بتغير البيئة . فالصفات الوراثية لا تتغير مطلقاً على ما نعلم . والحكم في الصفات المكتسبة متعذر الآن فليس في البحث العلمي فيها ما يجيز حكماً من هذا القبيل . اما قيام الجسم بوظائفه فتأثر بأحوال البيئة ، كحالة الجو ووفرة الطعام او قلته مثلاً . ذلك ان اعضاء الجسم قادرة على الملاءمة بينها وبين البيئة التي تحيط بها

أما العقل فلا يستجيب الى حوافز البيئة الاَّ في مدى اختباره . وتركيبنا الجثماني لا يجهزنا بالمادة التي تمكن العقل من الحكم في شتى الاحوال والمواقف . هذه المادة مستمدة من اختبارنا وتربيتنا . فهما تختلف عقولنا في تركيبها ، فانها لا تستطيع ان تدبر حركة الجسم إلاَّ على اساس ما تعلمناهُ واختبرناهُ سابقاً . وعندما نسعى الى قياس ذكاء صبيٍّ ما يجب ان يبنى مشكلنا على أحوال عرفها قبلاً . فاذا بنيناها على أحوال لم يعرفها قبلاً كان الامتحان خاطئاً من أساسهِ . ولذلك لا يجوز ان نمتحن ذكاء الاطفال الصغير بأسئلة نمتحن بها ذكاء الاطفال الاميركيين الذين في عمرهم . واذا شئنا أن نمتحن كيف يتدبر الفرد ويتصرف في مواقف معينة وجب ان نعرف ما يُجهل وما يحتقر ، وما يجوز وما لا يجوز في البيئة الثقافية والاجتماعية التي نشأ فيها . وتقيم الافراد الذين ينتقلون من بيئة ثقافية واجتماعية الى أخرى مخالفة لها وكيف يتصورون نظرتهم الى الحياة والآداب دليل على قلة ارتكاز الرزمات العقلية على التركيب الجثماني

في وسعنا ان نتتبع تبدلاً يقع في شخصية شعب من الشعوب بغير ان نحدث تبدلاً في وراثتهِ . فالهنود الحمر الذين اصبحوا محدوداً على جانب كبير من ثقافة الحضارة الاوربية والسحر الاوربيين في سلوكهم وتفكيرهم هم أبناء اليابانيين الذين انحدروا من يابان دون الأوربيين والاميركيين

ان رزمات عقلية كثيرة تقوم على أساس من التركيب العضوي . ولكنها تتحول وفقاً للبيئة الثقافية والاجتماعية التي ينشأ فيها الفرد ويترعرع . فالصفة تشمل المراهقين في جميع انحاء الارض أما ما يثير عنفاً او غير عنيف فيختلف باختلاف صور في الثقافة والاجتماع في بيئات شتى

ولم يكشف حتى الآن فروق بيولوجية اصيلة بين الناس ترجع في تأثيرها تأثيرَ الفروق

الثقافية . فكل سلالة تشمل خطوطاً وراثية مختلفة ، ومداها لايختلف كثيراً في شعب عن آخر فليس هناك فروق تذكر في كيف تؤدي الحواس الخمس وظائفها في شعوب مختلفة . أما فروق الذكاء فلها مقال أوفى نشرناهُ في مقتطف يونيو سنة ١٩٣١ صفحة ٧١٠—٧١٥ وهو ملخص بحث للدكتور استاروكس استاذ علم النفس بجامعة كولمبيا الاميركية . وقد عالج فيه موضوع الذكاء في شتى السلالات البشرية من نواحي الانثروبولوجيا (علم الانسان) والتاريخ واللغة وعلوم الاحياء ، ثم خرج من بحثه هذا الى النتيجة العامة التالية : « ان العلم لا يميل الآن الى وضع تاج التفوُّق العقلي على رأس سلالة بعينها من السلالات البشرية » . ومن اقواله : — ان اركان حضارتنا الحالية ترتدُّ الى مصر وبابل واليونان . من هذه البلدان خرجت اصول حياتنا المدنية كتدجين الحيوانات وزراعة النباتات الغذائية . فالذي يسند ارتقاء الحضارة الى السلالة النوردية عاجز عن تفسير هذه الحقائق . والهنود الحمر المختفون الآن شيَّدوا حضارة سامية قبل القرن الخامس الميلادي كان فيها آثار بليغة لمنتجات العقل . فالنوردي في الحضارة العالمية حديث النعمة

وعلماء الانثروبولوجيا الحديثة لا ينكرون تأثير السلالة البشري . التركيب البيولوجي ولكنهم يشيرون في الوقت نفسه الى ان كل شعب يضم ضروباً كثيرة من « الطرز » البيولوجية مهما يكن تكاثرهُ قائماً على زواج القربى ، ولاريب في ان هناك فروقاً كبيرة في تصرف أجناد أناس من سلالات مختلفة تصرفاً بيولوجيًّا او سيكولوجيًّا ، ولكنها فروق كمية فقط . ومن المتعذر نسبة فرد من الناس الى سلالة معينة بالاستناد الى هذه الفروق

ثم هناك فروق جثمانية لم يثبت ان لها صلة بسلوك الناس . في الكلاب ، فصيلة واحدة تجد الابيض والاسود ولكن طباعها واحدة . والبقرة او ياض بشرة سمة تقص المادة الملونة في الجلد . وهذه صفة وراثية على الترجيح ولكن العلماء لم يكتشفوا حتى الآن ما يحملهم على الظن بأن هناك صلة بين مادة الجلد الملونة وسمة الغباء

والخلاصة — على ما يقول الدكتور فرانز بواس استاذ الانثروبولوجيا سابقاً في جامعة كولمبيا ولعلَّهُ أكبر الانثروبولوجيين الاحياء وعنهُ حمد ما تقدم من بحثه — الاميركية — أنهُ لا أساس للمذهب القائل بأن السلالات تختلف بعضها عن بعض بفطرتها التركيب البيولوجي ولا يجوز ان نذهب بوجهٍ من الوجوه الى ان التركيب البيولوجي لجماعة تفوق بصفة على أخرى . في كل سلالة خطوط وراثية متعددة ، وسلوك الاجتماعي مردهُ في المقام الاول الى الاختيار . وان رجالاً من طراز بيولوجي واحد يسلكون سلوكاً مختلفاً في موقف واحد اذا نشأوا في بيئات مختلفة اي اذا كان اختيار أحدهم مختلفاً عن اختيار الآخر ، ويقابل هذا ان رجالاً من أطرزة بيولوجية مختلفة يتصرفون تصرفاً واحداً بوجه عام اذا نشأوا في بيئة اجتماعية واحدة